

مفهوم الشعرية العربية وقضية الإعجاز القرآني

بحث في الإسهامات والتحويلات التي أحدثها القرآن الكريم

د. بغداد يوسف

كلية الآداب واللغات والفنون

جامعة لجيلالي اليابس

ملخص :

لقد مثلت قضية إعجاز القرآن الكريم والاهتمام بها ميلاد ونشأة قضايا بلاغية وشعرية مختلفة، حيث استطاع المفسرون والقراء تقديم القرآن باعتباره نصاً إلهياً مقدساً يدعو إلى دين جديد هو الإسلام، وركزوا على قضية إعجازه وكونه مخالفاً لكلام البشر ومتفوقاً عليه، فلا يمكن الإتيان بمثله لأنه قوي في إعجازه وبلاغته. وقد احتج النبي (صلى الله عليه وسلم) ببلاغة القرآن وإعجازه حيث اعتبر معجزاً للعرب آنذاك في فصاحتهم ولغتهم فكان دليلاً قاطعاً على ألوهية هذا النص القرآني، وبقينا أنه ليس كلام بشر.

الكلمات المفتاحية : القرآن الكريم – الشعرية – الإعجاز – البلاغة.

Summary:

The question of the miracle of the Koran and its interest represented the birth and the emergence of various rhetorical and poetic questions. His miracle and his eloquence. The Prophet (peace be upon him) protested the eloquence of the Qur'an and its miracles because it was considered a miracle for the Arabs at that time in their eloquence and their language.

Keywords: Koran, poetry, miracles, rhetoric.

مقدمة

لم يحظَ فنّ من فنون الأدب العربي بكثرة الدراسات وتنوعها، سواء القديمة منها أو الحديثة مثلما حظي الشعر العربي. وخاصة الجاهلي منه، إذ يُعدُّ المرجع الموثوق به لأساليب العرب البلاغية والبيانية، والمصدر الأصيل لمفرداتهم اللغوية، وطرقهم التعبيرية، فضلاً عما يحويه الشعر العربي من مآثر العرب ومفاخرها، وأحداث أيامها ووقائعها، فهو الوثيقة الرسمية الأولى التي دوّنت تاريخ العرب الوجداني والاجتماعي، منذ بزوغ الجنس العربي ونبوغ عقلية.

وقد اعتنى الإسلام بالشعر واعتنى بتوجيه مضمونه وأراد بذلك أن يسمو بالشعر والشعراء، وأن يجعلهم أداة بناء وإسعاد وكما احتفت القبيلة العربية بالشعراء وأشعارهم، احتفى النقاد والبلاغيون والمفسرون وعلماء الإعجاز القرآني على اختلاف مناهجهم وتباين توجهاتهم بالشعر، فقام المفسرون بتوظيفه في تفسير النص القرآني الكريم وكشف ما فيه من غريب الألفاظ وغامض المعاني، ولعلّ أهم قضية هي تلك التي أثّرت حول إعجاز القرآن الكريم ومخالفته لكلام البشر وعدم القدرة على الإتيان بمثله، فعمل علماء الإعجاز أمثال (الباقلائي والخطابي البستي والرّماني) على مقارنة القرآن الكريم بالشعر، وإظهار علوه والرد على المتحدّين ممّن شكّوا في القرآن الكريم، فأثاروا من خلال مناقشتهم ومؤلفاتهم مواضيع كثيرة حول الشعر ومفاهيمه ومميزاته وخصائصه، ما اعتبر مساهمة في تحديد مفهوم الشعر عند العرب وإضافة إلى حقول المعرفة المتعلقة بتطور النظرية الشعرية العربية.

فالقرآن الكريم جاء بأساليب جديدة لم تكن معروفة عند العرب، فقد كانت العادة جارية بضروب من أنواع الكلام معروفة عندهم، منها الشعر، ومنها السجع، ومنها الخطب، ومنها الرسائل، ومنها المنثور الذي يدور بين الناس في الحديث، فجاء القرآن بطريقة جديدة مفردة خارجة عن النظم المعتاد في كلام العرب، ومباينا لأساليب خطابهم.

سنحاول من خلال هذا المقال مناقشة أهم القضايا التي طرحت حول إعجاز القرآن ومقارنته بالشعر وأهم المباحث البلاغية التي تميّز بها القرآن الكريم عن باقي الأصناف الأدبية خاصة الشعر لعلنا نستطيع الوقوف على مدى مساهمة الدرس البلاغي ونشأته في بسط علم الشعر العربي وقوانينه.

إنّ أول قضية مثلها القرآن الكريم هي تحديه للمشكّكين بأن يأتوا بنص مشابه له أو ينافسه، وبالتالي فعجزهم على الإتيان بمثله دليل على ألوهيته وقبول لما جاء فيه ودليل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ﴾، (الطور، الآية 34) وقد رفع القرآن التحدي للذين يحاولون مجاراته ومنافسته لقوله عز وجل: ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء، 88) والآيات الدالة على التحدي كثيرة، فالله عز وجل يدعو المجاهدين والمكذّبين إلى الإتيان بعشر سور أو سورة واحدة فقط من مثل هذا القرآن، ويحذره من عاقبة الارتياح ويعدهم بالعقاب. قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ²³ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْجِبَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ²⁴﴾ (البقرة، 23-24).

جاء على ذكر قضية "التحدي" علماء أمثال "الباقلائي وابن سنان الخفاجي والخطابي"، ولعلّ أبرز المعارضين للقرآن الكريم مدّعي النبوة (مسيلمّة الكذاب) وقد أورد في هذا الصدد "أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي" في رسالته (بيان إعجاز القرآن)، بعض ما حكاه "مسيلمّة" لمجابهة القرآن الكريم في قوله: « يا ضفدع نقيّ كما تتقين لا الماء تكدرين ولا الوارد تنفريين » وقوله: « الفيل وما الفيل وما أدراك ما الفيل له مشفر طويل... »¹، ويورد "الباقلائي" أقوالاً أخرى لهذا المفتري الكذاب كلها ركاكة وسخافة وجهالة لا يمكن أن تجابه إعجاز القرآن ولغته ومثانة أسلوبه وجزالة لفظه.

تعرّض القرآن الكريم لنقدٍ كبير وقاسٍ في أحيابين كثيرة ولكن الرد كان أقوى وأشدّ، ولعلّ من أبرز المهتمين بهذه القضية "الخطابي البستي" (319 / 388هـ) في رسالته "بيان إعجاز القرآن" والتي بين فيها أهم الانتقادات التي وجهت للقرآن الكريم، وعليه يتولى هو الدفاع عنه بالرد على هذا النقد في ثلاث عناصر هي (الألفاظ والمعاني والنظم أو التأليف)، فقد عيّب في الألفاظ في قلة الغريب في القرآن الكريم، وعن المعاني وجود عبارات خلاف الفصاحة وحسن البيان كقوله تعالى: ﴿فَأَكَلَهُ الذَّنْبُ﴾ (يوسف، 17)، وفي النظم والتأليف فعيّب عليه اضطراب وانعدام التجانس أو التناسب مثل: الحذف الكثير والاختصار كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾ (الرعد، 31)، وأيضا التكرار المضاعف ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ في سورة الرحمن. هذه القضايا وهناك قضايا وآيات قرآنية لم نأت على ذكرها. كل هذه الملاحظات لم تكن مستحسنة ولا مقبولة عند أهل البلاغة وأصحاب البيان.

يردّ "الخطابي" على هذه المآخذ رداً شاملاً ودقيقاً ويطعن فيها كلها فرداً مثلاً على نقدهم لقوله تعالى في سورة يوسف: ﴿أَكَلَهُ الذَّنْبُ﴾ بدل افترساله أي أن الأكل غير الافتراس الذي يعني القتل فحسب، في حين أن الأكل يأتي على جميع الأجزاء، فخشية إخوة يوسف مطالبة أبيهم بأثرٍ باقٍ منه دفعهم لقول ذلك.

أيضاً "أبو الحسن بن عيسى الرماني" (226هـ / 286هـ) يدافع ويستخلص أشياء دقيقة في إعجاز القرآن الكريم، وقد ضمّن ذلك في رسالته (النكت في إعجاز القرآن)، فهو يرى الإعجاز ماثلاً في وجوه عدة أبرزها البلاغة التي يعنيها في عشرة أقسام (التشبيه- الإيجاز- الاستعارة- التلاؤم- الفواصل- التجانس- التصريف- التضمن- المبالغة- حسن البيان)، ويستعرض لكلّ هذه القضايا أمثلة من القرآن.

المطلب الأول: شعرية الإعجاز:

حظيت البلاغة باهتمام كبير لدى هؤلاء الدارسين، فجّل الأعمال التي تطرقت إلى مسألة الإعجاز القرآني، وتلك السجلات المحتدمة تبين هذا الاهتمام الجليّ بالبلاغة أكثر من العناصر الأخرى التي تحقق الإعجاز، فإضافة إلى "الرماني والخطابي" و"أبي بكر محمد بن الطيب الباقلائي" (403هـ) ثم "عبد الجبار الهمذاني" (415هـ) ووصولاً إلى "عبد القاهر الجرجاني" (415هـ) و"أبي يعقوب السكاكي" (626هـ) كلهم اعتمدوا البلاغة كدليل لبيان الإعجاز في القرآن الكريم حيث يتخذون منها الحجة المتينة ويعطونها الاهتمام والشرح والتفصيل الدقيق، على الرغم من وجود عناصر أخرى في قضية الإعجاز، فمثلاً "الرماني" يعدها سبعة عناصر: ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة- التحدي للكافة والصرفه والبلاغة والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلية، ونقض العادة وقياسه بكل معجزة...

إن سيطرت البلاغة على قضية الإعجاز فكانت أهم عنصرٍ في هذه الأبحاث والمقالات التي تضمنت القرآن الكريم، أوضح هذا الاهتمام الرؤية الشعرية للإعجازيين بقواعدها ومرتكزاتها ومقاييسها وأحكامها¹.

الفرع الأول : التلاؤم في التأليف: اهتم بهذه القضية "الرماني" في مؤلفه (النكت في إعجاز القرآن) وتعتبر من أهم الأعمال الريادية في مجال الإعجاز، فقد سيطر اهتمام البلاغة على معظمها فالرماني يعرف البلاغة على أنها « إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ، ويضيف أن البلاغة لا تخرج عن ثلاث مستويات عليا ووسطى ودنيا، فالأولى هي "بلاغة القرآن وما دونها هي بلاغة البشر" وقد بين عناصرها عشرة (سبق ذكرها)، وكذلك يستعرض كلّ عنصرٍ على حدى، فيعرفه ويحصر أوجهه ويبحث عن وجوده وتجلّيه في القرآن.

يمكن اعتبار هذه الإشارات التي جاء بها "الرماني" وهي بلاغية بحتة، إسهامات أولية في تحديد وبعض النظرية الشعرية فيما بعد، خاصة في عنصرَي "التلاؤم والبيان" فهو يسوق الشواهد تباعاً لكي يؤكد على هذين العنصرين. فالتلاؤم يعزوه إلى تأليف الحروف في القرآن ومدى تعادلها، وهذا ما يعجز عنه الإنسان، والتأليف عنده ثلاث أنواع: متنافر ومتلائم في الطبقة الوسطى، ومتلائم في الطبقة العليا.

قوبل هذا التصوّر الخاص بالتلاؤم الذي جاء به "الرماني" بنقدٍ شديدٍ من طرف "ابن سنان الخفاجي" (461هـ) في كتابه (سرّ الفصاحة) بقوله: « الذي ذكره غير صحيح والقسمة فاسدة، وذلك أن التأليف على ضربين: متنافر ومتلائم (...)، ولا يحتاج إلى قسمٍ ثالثٍ* ». ومعنى كلامه أن إعجاز القرآن ليس في البلاغة أو الفصاحة وإنما في صرف العرب عن معارضة القرآن، بسلبهم العلوم التي

تمكنوا بها، إضافة إلى رفضه القاعدة التي يميّز بها "الرماني" بين المتلائم والمتنافر في القرآن الكريم، فهو يجعل التنافر في التباعد الشديد أو في التقارب الشديد لمخارج الحروف وصعوبتها على اللسان، أما التلاؤم فيكون بالاعتدال لسهولة على اللسان.

الفرع الثاني: النظم والتأليف (عند الباقلاني):

هدف "الباقلاني" من تأليف كتابه هو إبراز وإثبات الإعجاز في القرآن الكريم، وأيضاً نفي الشعر عنه، وبالتالي فهو يفنّد كل مقارنة بين الشعر والقرآن، وبناءً على هذا يستنتج مفهوماً للشعر أو كما يسميها أساليب الكلام عند العرب، أهمها: أنّ الشعر مختلفة في الأنواع لكن مفهومه نظم مقفى موزون، وله روي، كما يوجد كلام موزون غير مقفى وآخر مسجع غير موزون، وآخر معدّل موزون غير مسجع. والقرآن يختلف عن هذه الأساليب فمفهوم الشعر عنده فيه - أي الشعر - صنعة تميزه عن بقية الكلام، الشعر فطنة فالشاعر فطن لما لا يفطن له الغير.

وفي مقارنة "الباقلاني" بين الشعر والذود عن القرآن وفضله رأى أنّ ما جاء في القرآن موزوناً ليس شعراً مثل قوله تعالى في (سورة العاديات): ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ (*) فَأَلْمُورِيَّاتِ قَدْحًا. فالوزن هنا متفق بدون قصدٍ وأيضاً من شروط الكلام الموزون أن يكون متساوي الأجزاء في الطول والقصر، وليس القرآن من هذا، كذلك السواكن والحركات، أيضاً الاتساق في القافية، والوزن شرط أساسي لأن فائدة الشعر تتأتى من خلال الوزن¹.

وبالعودة إلى الإعجاز القرآني يطرح "الباقلاني" أفكاراً جديدة وخاصة يواجه بها الأسئلة والشكوك التي أثّرت حول النصّ القرآني، وأوّل قضية يناقشها هي قضية (الصرفة)، أي أنّ الله صرف عن البشر معارضة القرآن والإتيان بمثله، أي أنهم غير قادرين على ذلك، ويأتي بحجتين لدحض هذا الكلام، الأولى أن إعجاز القرآن لا يعود إلى النظم الخاص والممتنع، بل إنّ البلاغة هي التي تعاني الانحطاط فيما القرآن قد يكون دليلاً أقوى في أعجوبته، ورأى في المعنيين بالصرفة وهم من عاصر القرآن، وليس أهل الجاهلية، لأنه ليس ككلامهم، وعليه فالادعاء بالصرفة باطل.

ويضيف "الباقلاني" أن مساواة كلام الله بكلام الآدمي تقدير خاطئ ومغلوط، ولو كان كلام "الصرفة" صحيحاً لكان المنع هو المعجزة، فالإعجاز أمر يتقرّد به القرآن الكريم على سواه من النصوص الدينية أو غير دينية حتى "التوراة والإنجيل"، فالقرآن هو النصّ الوحيد الذي تحدّى به الله البشر في الإعجاز، فلا مثيل له في كلام البشر، ويستند "الباقلاني" في حجته على الإعجاز بثلاثة أوجه: أولاً الإخبار عن الغيوب وأحداث المستقبل، وثانياً هو مجيء النبي الأمي الذي لا يحسن القراءة ولا الكتابة، وثالثاً أن القرآن بديع النظم عجيب التأليف والخلق عاجزون عن الإتيان بمثله، وعن خصوصية القرآن الكريم:

- نظم القرآن خارج عن المعهود، وله أسلوب خاص ومتميز عن الكلام المعتاد.
- لم تعرف العرب كلاماً يشتمل على كلّ هذه الفصاحة والغرابة والتصرف والبدیع والفوائد والحكم والبلاغة والتشابه.
- أيضاً من عجيبة القصص والمواعظ والاحتجاج والأحكام والسير.
- الخروج من شيء إلى شيء أي جعل المختلف كالمؤتلف، والمتباين كالمتناسب.
- التمثل بكلماته دليل على رونقه وفصاحته.
- عدد السور التي بدأت بذكر الحروف ثمان وعشرون، وعدد حروف العربية تسعة وعشرون.

خلاصة ما جاء به "الباقلائي" أنّ الإعجاز حاصل في النظم والتأليف، وأنّ هذا النظم لا مثيل له في كلام العرب البديع من شعري أو مسجع أو موزون غير مقفى

ينتقل "الباقلائي" إلى تأكيد آخر على قضية الإعجاز من خلال نهج آخر غير وصفي يعتمد على التحليل والمقارنة، فهو يبحث ويتقصّى عن أحوال الفصاحة والبلاغة في ثلاث أنواع رئيسية من كلام العرب هي (الشعر والرسائل والخطب) حيث أن العرب قد برعت في الشعر أكثر من غيره، وهذا الأخير قد حظي بشروط الفصاحة والبلاغة، وقد سعى "الباقلائي" إلى مقارنة النص القرآني ببعض الشعر الجيد والقصد هو تبيان أفضلية القرآن على الشعر في النظم، ويعيب على الشعر الخل والاضطراب في التأليف والنقص في التراكيب والصنعة اللفظية، وهذه الصفات كلها وغيرها لا يعرفها القرآن، فنظمه كما يصفه « جنس متميز وأسلوب متخصص وقبيل عن النظير متخصص»¹. ويورد "الباقلائي" أمثلة من نصوص شعرية حظيت بالإجماع على جودتها مثلاً "معلقة امرئ القيس"، التي ضمت من المحاسن المختلفة والإبداعات المتنوعة، فهو يستعرضها بأكملها تقريباً، فيعلق على أبياتها ويبين عيوبها وأماكن الخل فيها، ويبرز الحشو والفحش والسخف والتكلف والتناقض والتفاوت وعدم التلاؤم، وغير ذلك من المآخذ والعيوب، وبعد ذلك يقارن هذا الشعر مع الكلام المنتظم والمؤتلف والمتحد والمتباعد والمتقارب ألا وهو القرآن الكريم والذي كلّ ألفاظه وجمله عالية في البديع والبلاغة بعيدة كل البعد عن كلام البشر، وقد ضرب مثلاً لتأكيد كلامه بـ"سورة النمل" لما فيها من بلاغة الكلمات والجمل، وكذلك يمثل أيضاً بالصور التي بها قصص (قصة موسى وسليمان وإبراهيم...).

استطاع من خلال هذه المقارنة أن يتصوّر الشعرية وقوانينها من خلال نظرية الإعجاز القرآني فركز على معيار أساسي وهو (التأليف العجيب)، فلم يكتف بمعلقة "امرئ القيس" باعتبارها سابقة للقرآن الكريم بحوالي مائة سنة، فهي بالتالي دليل غير كافٍ على مقولة الإعجاز، لهذا فهو يلجأ إلى آخر ما بلغه من شعر على أيامه، فيدرسه كما درس شعر "امرئ القيس" كما فعل مع شعر "أبو عبادة البحتري" صاحب الجودة الشعرية بالإجماع.

بعد الوصول إلى تصوّره والتسليم بإعجاز القرآن على الشعر في كل شيء له علاقة بالبلاغة والفصاحة، يعرّج "الباقلائي" على مقولات البلاغة ليعالجها ويناقشها، والتي رأى فيها أهل الأدب والكلام أنها عشرة (الإيجاز - التشبيه - الاستعارة - التلاؤم والفواصل والتجانس والتصريف والتضمين والمبالغة وحسن البيان) فيناقش من يرى أن في هذا الإعجاز أقسام، ولا يراها معجزة إلا إذا اتصلت بأقسام أخرى كالبيان الذي يشترط فيه اعتدال النظم وسلاسة اللفظ سمعاً ونطقاً ووقعاً ووضوحاً في المعاني

إن "الباقلائي" يعتبر النص القرآني نصاً استثنائياً فائق البلاغة، ومساهمته هذه لها قيمة علمية في بلورة وميلاد الشعرية العربية، ولعلّ أهم ميزة في دراسته هذه هي اعتماده مبدأ "الكلية" في إصدار الأحكام الخاصة بالإعجاز والبلاغة فيأخذ السورة كاملة والقصيدة كاملة كشاهد على عكس دراساتٍ أخرى تأخذ بعض الآيات، وبعض الأبيات، وكذلك يعتمد النصوص النثرية كالخطب والرسائل.

أما عن خصائص الشعرية عند "الباقلائي" فهي كالتالي

- التأكيد على مفهوم القصد في تجنيس الكلام الذي يقال شعراً، ويتضح من تأكيده هذا خروج كل ما جاء موزوناً ومقفى في القرآن، أو على لسان الرسول (صلى الله عليه وسلم).
- الوزن والقافية ووحدة الروي يعتبرها مقومات أساسية في الشعر.
- الصنعة الشعرية وهي ميزة خاصة به عن غيره ومن الأساليب الكلامية، وبهذا يعتبر أصعبها، وما يميزه أيضاً البديع كالاستعارات والتشبيهات والتمثيل والتطابق والتجنيس والمقابلة والتوازن والتكرار.
- التفاوت في النصوص الشعرية من شاعرٍ لآخر.
- لا يجوز موازنة الشعر بغيره من الأساليب الكلامية كالقرآن الكريم، بل وجب مقارنة الشعر بالشعر، وضرورة مراعاة الزمان والمكان.

المطلب الثاني: شعرية البلاغة وإسهاماتها في تحديد النظرية الشعرية:

هناك تداخل في مباحث الأدب العربي، فكلّ علاقة بالآخر، ونقصد بذلك النقد الأدبي واللغة والبلاغة وعلم الشعر والفلسفة، فعلماء العربية وأدباؤها قديماً كانوا علماء موسوعيين ينطلقون من اللغة وعلاقتها بالقرآن الكريم ثم يعودون إليها، لكن هذا لا يمنع من أن لكلٍ منهم وجهته ومنحاه، فمنهم اللغوي والراوي المهتم بالشعر، والدارس للقرآن الذي يتقاطع مع البلاغي والفيلسوف والناقد. ولعلّ كل هذا التداخل والتمازج في العلوم مردّه إلى غياب التنظير والتخصص الدقيق أو لنقل تأخر

القراء والمهتمين العرب في مراجعة تراثهم، أو فشلهم في إعادة تبويبه وتصنيفه كل في مجاله، وهذه مفارقة عجيبة يتميز بها تراثنا العربي القديم عن سائر ثقافات الأمم الأخرى.

وبالعودة إلى انطلاقة أو تاريخ الأدب العربي القديم، سنجد تسمية البلاغة العربية أو البيان العربي هي المسيطرة لعقود من الزمن، والتي كانت مجالاتها مختلفة ومتنوعة تضم (اللغة ومباحثها، الأدب شعره ونثره، الفلسفة والمنطق وعلم الكلام، الإعجاز القرآني، النقد). انطلاقاً من هذا التعدد سنحاول التركيز في هذا المبحث على نشأة البلاغة وأهم أعلامها وأهم المؤلفات وما حوته من مباحث بلاغية، وأيضاً إسهاماتها في تحديد النظرية العربية.

المطلب الثالث: نشأة البلاغة وتطورها:

نشأت البلاغة في عهد متأخر، لكن اختلف في تحديد التاريخ الدقيق لنشأتها والأرجح أنها نشأت وظهرت في القرن الثاني هجري¹، أو بين القرنين التاسع والقرن الحادي عشر. شهد القرن الثاني هجري عدة آراء أصلية و مترجمة حول البلاغة وعناصرها، وقد كان ظهورها بعد فساد الملكات، حيث بدأ العلماء في البحث عن أصل البلاغة وتدوين الآراء حولها خاصة معنى كلمتي (البلاغة والفصاحة). في حين يعتبر البعض أن "الجاحظ" هو أول من اهتم بالبلاغة وأنه مؤسس البيان العربي حقاً. يرى البعض الآخر أنه كانت إشارات لها قديماً أي أن نشأتها سبقت "القرآن الكريم"، فمثلاً في العصر الجاهلي لم تكن هناك بلاغة إلا ما روي عن "عامر بن الطرب" حين سئل: من أبلغ الناس؟ فقال: « من حلّى المعنى المزيّز باللفظ الوجيز وطبق المفصل قبل التخريز »²، وفي العصر الأموي ما كان يصدر من تعليقات مثل "أمير المؤمنين" "معاوية بن أبي سفيان". وهناك رأي آخر يقول بأن أول محاولة لبلاغة مدونة (مكتوبة) كانت بصحيفة "بشر بن المعتمر" (210هـ) وهو من زعماء المعتزلة، وأيضاً تفسير "ابن المقفع" وتعريف "العتابي"، ووصية "أبو تمام للبحثري" لقوله: « خير الكلام ما قلّ و جلّ ودلّ ولم يملّ ».

وقد كان للفلاسفة تأثير على البلاغة وتطورها، ورأي آخر رأوا أن تأثير المعلم الأول "أرسطو" واضح في علم البيان.

والأصل في نشأة البلاغة عبر ثلاث اتجاهات:

(1) التراث النقدي العربي القديم.

(2) الخطابة الإغريقية القائمة على المنطق.

(3) نشوء وتكوين النظرية عن طريق النقاشات الكلامية والسياسية حول النص القرآني (قضية الإعجاز) هذا المصدر (القرآن) أدى الدور الحاسم حيث هيأ الإطار الثقافي وخلق

المحاور الأساسية، بينما عمل المصدران الآخران (النقد والخطابة) على تقديم الأدوات والعناصر الإصلاحيّة، كما ساهم في النقاشات النظرية حول مسائل القرآن تيارات سياسية ذات إيديولوجيات متعددة. ولعلّ أهمّ هذه التيارات التي دافعت عن القرآن الكريم (التيار الاعتزالي) الذي تُنسب نشأته لـ"واصل بن عطاء" (750هـ). لقد أسهمت الطروحات الاعتزالية وأدت دوراً مهماً بنقاشاتها الكلامية السياسية وأثرت في نشأة البلاغة وتطورها.

الفرع الأول: مصادر البلاغة واتجاهاتها:

كانت الانطلاقة من قضية اللفظ والمعنى، ومسألة اقترانهما وأيضاً من البحث في النصوص الأدبية والنص القرآني خاصة. وبخصوص النص القرآني برز تياران¹ الأول يعتمد على النقل بخصوص (النص المقدس)، والثاني يعتمد على ثقافة المؤول وعقله، وقد تبنى التيار الاعتزالي الموقف الثاني العقل قوة متفوقة على النص، فالتأويل العقلي يقود إلى الفهم الصحيح للنص، فـ"القاضي عبد الجبار" (1024م) دافع عن العقل واعتبره الشرط المطلق لقراءة القرآن الذي جاءت نصوصه موجهة إلى العقل الذي لا يكون تعارض حين تحكيمه وأهم قضية نتجت عن التأويل العقلي هي قضية (المجاز) الذي أسس لمفهوم البلاغة العام. اعتمد "المعتزلة" على الاستدلال: والذي بدعوه بنقض حجج أعداء الإسلام (المسيحيين) الذين كانوا يستعملون الجدل الذي ورثوه عن التراث الفلسفي الإغريقي، وعند العرب تلك المجموعة التي اهتمت باللاهوت (علم الكلام) والمتكلمون (الجدليون).

"البيان العربي" ونشأته هي نفس النشأة التي مرت بها "البلاغة العربية"، ويعتبر "الجاحظ" (255هـ) صاحب المحاولات الأولى في تحديد مفهوم البيان جمعها كتابه (البيان والتبيين) والذي يعتبر أهم مؤلف تعرض لمفاهيم البلاغة والآراء التي كانت سائدة حولها في عصره، وناقش في مؤلفه الكثير من بحوث البلاغة، فعرف (الاستعارة وتكلم عن السجع، وأشار إلى التفصيل والتقسيم والاستطراد والكناية، والأمثال والاحتراس والقلب والأسلوب الحكيم)². أيضاً يعتبر "الجاحظ" أول من تكلم على المذهب الكلامي وهذا راجع لأنه من أئمة المعتزلة وقد تتلمذ على يد النظم، فهو يرى أن البلاغة تكون في اللفظ لا في المعاني، ويدعو كذلك إلى الابتعاد عن الحوشي والسوقي، وضرورة الإفهام والوضوح، وترك التعمق والتهذيب في صناعة الكلام. أيضاً عني بالخطابة فأطال الكلام في أوصافها وعناصرها وأدواتها ومظاهرها، كما تحدث عن صفات الخطيب وسماته، وتكلم أيضاً عن النثر والمحادثة والكتابة بلاغتها وعناصرها ومذاهب الكتابة الأدبية. كذلك ذكر الشعر وأثره وخطره وألوانه، وطبقات الشعراء، وعن مذاهب الصنعة والطبع، وعن الحوليات، وعن مكانة الشعر والشعراء في الجاهلية.

وأهمّ مبحثٍ في تاريخ البلاغة والمعتزلة خاصة هو مفهوم (المجاز) الذي هو أصل الفكر الاعتزالي، والذي له مسلمتان أساسيتان هما: (وحدانية الله المطلقة، العدل المطلق)، نوقشت هذه المسلمات على النص القرآني، فمثلاً هناك سور دالة على وحدانية الله (سورة الإخلاص) و(سورة الشورى)، وقضايا المجاز في صفات الله عز وجل مثلاً: أن له وجه (سورة الإنسان وسورة البقرة)، وقضية الاستقراء. فالمعتزلة يرون أن هذه الإثباتات لو أخذت بمعناها الحرفي ستناقض التنزيه الإلهي فيعتبرونها مجازاً.

المجاز ضرورة مطلقة في اللغة الإنسانية، فمعاني اللغة بالمجاز تكون غير محدودة، المجاز ليس ضعفاً للغة بل هو تغيير أكثر قوة أو كما يقال أبلغ من الحقيقة.

مرحلة أخرى للبلاغة سميت بمرحلة التدوين بدأت على يد "ابن المعتز" (296هـ) في كتابه (البدیع)، و"ثعلب" في (قواعد الشعر)، وأيضاً بعد "قدامة بن جعفر" بمؤلفيه (نقد النثر ونقد الشعر)، ثم كتاب الصنائع لأبي هلال العسكري (395هـ)، و"الموازنة" للآمدي ثم "الوساطة" للجرجاني، و"سرّ الفصاحة" بن سنان الخفاجي و"العمدة لابن رشيق"، ثم جاء "الجرجاني عبد القاهر" شيخ البلاغة العربية بمؤلفيه (أسرار البلاغة) الذي ضمّ دراسات واسعة حول علم البيان (التشبيه، الاستعارة، المجاز، السرقات وألوان البديع)، و(دلائل الإعجاز) ضمّ بحوثاً كثيرة حول (أصول علم المعاني والكناية، التمثيل، المجاز، الاستعارة، السرقات). يعتبر الجرجاني أول من وضع مناهج بحوث علم البلاغة العربية وما غلب عليه الذوق والطبع. بعد الجرجاني "الزمخشري" في مؤلفه (الكشاف) وأبو بكر الرازي (نهاية الإيجاز)، وابن الأثير (المثل السائر)، وبدر الدين بن مالك في (المصباح) والتتوخي (المصباح) ثم أبو يعقوب السكاكي (626هـ) في (مفتاح العلوم) الذي جعله أقساماً: تناول في القسم الثالث (المعاني، البيان، البديع)، ثم الخطيب القزويني (779هـ) في (الإيضاح).

هناك دراسات موجزة حول البلاغة ومباحثها: "مجاز القرآن" لأبي عبيدة (208هـ)، كتاب البيان لابن السكيت (244هـ)/ الفصاحة للدينوري (280هـ)/ التشبيه والتمثيل للفضل بن نوبخت/ صناعة الكلام ونظم القرآن والتمثيل للجاحظ/ البلاغة وقواعد الشعر للمبرد (285هـ)/ الرسالة العذراء لابن المدبر/ البلاغة للحراني/ البلاغة والخطابة للمروزي/ المطابق والمجانس لابن الحرون/ تهذيب الفصاحة لـ أبي سعيد الأصفهاني/ صناعة البلاغة للسيرافي (368هـ)/ نظم القرآن لابن الإخشيد*.

خاتمة

القرآن الكريم جاء بلسان عربي مبين وقيل قديماً "لسان العرب شعرهم" ومن المعروف أنّ الرسول (صلي الله عليه وسلّم) لم يكن شاعراً، وهذا ما وضّحه النصّ القرآني و منطوقه، ولكنه كان مهتماً بالشعر حتّى أنّه جعل "الحسان" منيراً في أقدس مكان عند المسلمين - أي المسجد - وأهدى "كعب بن زهير" بردته، فسميت قصيدته "البردة"، وكم نسج على منوالها الشعراء من بعده ويقول المسلمون إنّ القرآن ذو بلاغة خاطب العرب بها، ولغته راقية فصيحة، فلا عجب أن يفتخر المسلم بالقرآن أمام غير المؤمنين به، إذا عرفنا أنّ الأهمّ عند المسلمين هو تمييز القرآن الكريم عن اللغة والكلام العادي وعن السجع وعن الشعر فهو غريب عجيب. ومن بين أهمّ النتائج التي يمكن الوصول إليها ما يلي:

- اليقين الكامل بوجود فرقٍ شاسع بين القرآن وبين الشعر لأن كلام الله لا يمكن أبداً أن يشبه كلام المخلوقين.
- استطاع علماء الإعجاز إعطاء مفاهيم جديدة للشعر العربي من خلال مقارنته مع القرآن الكريم
- حدّد الدرس البلاغي العربي قوانين الشعر ومباحثه التي اعتبروها متقاطعة مع خصائص القرآن الكريم من حيث الشكل
- هذه المناقشات التي أثّرت حول مفهوم القرآن الكريم ومقارنته بالشعر العربي ساهمت في تحديد مفهوم الشعرية عند العرب .

الهوامش :

- 1- ينظر سامي سويدان، أسئلة النقد والشعرية، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، 2013 ، ص 41-42-43.
- 2- سامي سويدان، المرجع السابق، ص 50.
- 3- المرجع نفسه، ص 55.
- 4- نقلا عن المرجع نفسه، ص 56. (القول مأخوذ من رسالة (النكت في إعجاز القرآن).
- 5- ينظر علم الشعر العربي في العصر الذهبي فيسينتي كانتارينو، تر: على بيوض، دار الكتب العلمية، بيروت ط1 2004 (أورد نسخة من كتابة سر الفصاحة).
- 6- طراد الكبيسي، في الشعرية العربية- قراءة جديدة في نظرية قديمة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 2004، ص ص 33-34.
- 7- الباقلاني أبو بكر محمد بن الطيب، إعجاز القرآن، تح: أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، ط5، 1997، ص ص 29-30.
- 8- سامي سويدان، أسئلة النقد والشعرية، ص 61.
- 9- الباقلاني، إعجاز القرآن، ص 35.
- 10- المصدر نفسه، ص ص 276-277.
- 11- طراد الكبيسي، في الشعرية العربية، ص ص 37-38.
- 12- الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، تح: عبد المنعم خفاجي، ج 1 و ج 2، الشركة العالمية للكتاب، لبنان، 1989، ص ص 8-9.
- 13- رشدي راشد، دراسات في تاريخ علم الكلام والفلسفة، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، لبنان، 2014، ص 157.
- 14- الخطيب القزويني، الإيضاح، ص 10.
- 15- رشدي رشاد، دراسات في تاريخ علم الكلام والفلسفة، ص ص 160-161.
- 16- ينظر أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، دار إحياء التراث العربي، 1986.
- 17- رشدي رشاد، المرجع السابق، ص 162.
- *- للاطلاع أكثر على منجزات البلاغة ينظر الإيضاح للخطيب القزويني، ص ص 14-15.

قائمة المصادر والمراجع

1. سامي سويدان، أسئلة النقد والشعرية، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، 2013.
2. فيسينتي كانتيرو، علم الشعر العربي في العصر الذهبي، تر: على بيوض، دار الكتب العلمية، بيروت ط1 2004.
3. طراد الكبيسي، في الشعرية العربية- قراءة جديدة في نظرية قديمة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 2004.
4. الباقلاني أبو بكر محمد بن الطيب، إعجاز القرآن، تح: أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، ط5، 1997.
5. الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، تح: عبد المنعم خفاجي، ج1 وج2، الشركة العالمية للكتاب، لبنان، 1989.
6. رشدي راشد، دراسات في تاريخ علم الكلام والفلسفة، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، لبنان، 2014.
7. أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، دار إحياء التراث العربي، 1986.